

كذلك شاع فى الأغانى التقليدية ذكر اسم "النبي"، وهى عادة فى القول والحديث بين الناس، وتعود لأصول شعبية، وأسباب عقائدية؛ فقد ورد فى الأغانى عموماً، وبعيدا عن الموضوعات الدينية، كما فى أغنيات: "النبي تبسم" لعفاف راضى، و"والنبي يا جميل حوش عنى هواك" لكارم محمود، و"والنبي يامّة تعزيرنى" لمحمد على لعبة، و"يا كروان والنبي سلم" لأم كلثوم، و"والنبي يا جميل أنا موش قذك" و"طلوين والنبي حلوين" و"يا ليلة بيضة والنبي بيضة"، وهى لمحمد عبد المطلب؛ و"والنبي وحشتنا" لشادية؛ و"يا عشاق النبي" لسيد درويش، و"أنا شفت جمال والنبي يامّة" لصباح، و"يا عاشقين والنبي تحكولى" لليلى مراد، و"أنا سايقة عليك النبي" لليلى جمال، و"لا والنبي يا عبده" من التراث.

ويظهر هذا التأثير، أيضا، فى اختيار أسماء أغنيات أو مطلعها، تتناول أمثلة شعبية، أو قولاً مأثوراً، مثل: "فى البحر لم فتكم"، و"تراعينى قيراط أرايك انتين وتشوفنى بعين أشوفك باتتين"، و"صفر الوابور على السفر"، و"هو ده يخلص من الله؟". وكما تناولت الأغنية الأمثلة الشعبية السائدة، وردت فى بعض الأغنيات ألفاظ وجمل، ذهبت بعض تعبيراتها أمثالا، أو أقوالا شائعة، استخدمها الناس فى محاوراتهم، مثل: "وبراءة الأطفال فى عينيه" و"الصمت الرهيب" و"إضرب فاسك تطعم ناسك"، و"واثق الخطوة يمشى ملكا"، و"إن كنت ناسى أفكارك"، و"فى الهوى سوا"، و"الشك يحى الغرام"، و"فى الهوى دبنا"، وغيرها.

وتناول الفنانون غالبية المهن الشعبية والطوائف والحرف المختلفة فى ألحانهم، فمثلا قدم سيد درويش ألحان: "العرجية، الصنايعية، البحارة، الملاحون، الخبازون، التجار"، وغيرها؛ و"عرجى الحنطور" فى لحن "الجوز

إلى أن وصل إلى مدينة (طليطلة) وفتحها. وأما موسى بن نصير فقد أعاد فتح أشبيلية التي هرب منها قائد الحامية وجيشه إلى مدينة (باجة) البرتغالية، ثم اتجه بجيشه غرباً فوصل إلى مدينة (نبلا) المتاخمة لحدود البرتغال ففتحها وبذلك أصبح جيشه على حدود البرتغال وقريباً من أول مدينة برتغالية وهي (باجة) ولكن ما أوقف الاندفاع العسكري هو استدعاء الخليفة الأموي لموسى وطارق للعودة إلى دمشق. فعاد موسى بن نصير من شمال إسبانيا وأقام في أشبيلية لترتيب أمور الأندلس وأحوالها، وعين ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس، فيما قفل هو وطارق عائدين إلى دمشق فغادرا أرض إسبانيا في عام 95هـ - 714م.

استلم عبد العزيز بن موسى بن نصير زمام الأمر في الأندلس وعلى عهده بدأت قصة الفتح العربي الغامضة للبرتغال. وكان وصول العرب إلى مدينتها (باجة) البرتغالية قد تم على يد عبد العزيز، وقد فتح الباب أمام جيوشه لكي تتوغل هناك. ولقد أطلق العرب على المناطق التي تم فتحها في جنوب البرتغال اسم (الغرب) باعتبارها تقع غرب الأندلس وغرب العاصمة أشبيلية.

ويعتبر دخول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة واستلامه مقاليد الأمور هناك وهروب آخر حاكم عربي في عهد الولاة وهو يوسف القهري، بداية لعهد الإمارة في الأندلس ونهاية لعهد الولاة فيها والذي استمر لمدة 42 سنة تقريباً. أما عهد الإمارة فقد استمر مائتين وخمسين عاماً تقريباً. ولقد حصل في المرحلة الأولى تمرد العلاء بن مغيث الجذامي على حكم عبد الرحمن الداخل في مدينة (باجة) ورفع شعار بني العباس أي الراية السوداء ودعا إليهم، فلما بلغ أمره إلى عبد الرحمن الداخل وهو في قرطبة خرج إليه بجيشه وهناك دارت الدوائر على العلاء فانهمزم جيشه وقتل في المعركة وانتهت بموته تلك الفتنة.

ويورد الباحث د. فالح حنظل تواريخ الاعتداءات النورمندية على الدولة العربية في الأندلس تحت عناوين هجوم النورمند (الفايكنج) على لشبونة الأول عام 844م، والثاني عام 859، والثالث عام 861م، والرابع عام 961م،

والخامس عام 971، والسادس عام 972م. ومجمل القول أن عهد الإمارة في الأندلس والذي استمر لمدة تقارب مائتي عام كان من أبرز أحداثه إعلان الخلافة هناك على زمن عبد الرحمن الثالث وظهور قرطبة العاصمة مركزاً من مراكز العلم والثقافة، وجهاد ملوك وخلفاء ذلك العهد في الفتوحات والإنتاج الفكري، والعلاقات مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية ودفاعهم عن التخوم الغربية أي البرتغال ضد هجمات النورمانديين إلى أن انتهت الخلافة، وبعدها قامت في اسبانيا ممالك ودويلات مستقلة يحكم كلاً منها أمير مستقل فكان ذلك بداية (عهد الطوائف) هناك.

وكان آخر من تولّى الملك والإمارة في الأندلس على عهد الولاة هو هشام بن الحكم الثاني الملقب بالمؤيد بالله وكان صبيّاً في الحادية عشرة من عمره، ولم يكن في استطاعته النهوض بأمور الدولة ورعاية شؤون الأمة، مما دفع بوزيره محمد بن أبي عامر المعروف باسم الحاجب المنصور أن يأخذ السلطة لنفسه وأن يحكم باسم هشام - مما جعل بعض المؤرخين يطلقون اسم عهد بني عامر على تلك الفترة التي استمرت عشرين عاماً.

وبذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر ابتدأ عهد الطوائف في الأندلس.. وكانت الممالك والدويلات المستقلة يحكم كلاً منها أمير أو ملك. فتقسمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية يضم كلاً منها أمير أو أكثر. وعلى أيام المعتمد بن عباد ملك أشبيلية والمتوكل عمر بن محمد ملك بطليوس سقطت مملكة طليطلة بيد الملك الأسباني (الفونسو السادس) وذلك في محرم سنة 478هـ - 1085م. فأيقظ هذا الحادث وأمثاله من قبله المعتمد والمتوكل وبقية أمراء الطوائف من أحلامهم وأدركوا خطورة الأوروبيين وأطماعهم وآثارهم على دينهم وأمتهم فطلبوا العون من الملك يوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغرب فاستجاب لطلبهم، فكان دخوله إلى الأندلس بداية لعهد المرابطين هناك.

وتعاضم خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف بعد أن ذاق حلاوة الانتصار على المسلمين في طليطلة، فعزم على فتح مدن الأندلس، وحتى أنه

لما عرضت عليه رعيته أن يلبس تاج الامبراطور على عادة أسلافه القوط، أرجأ ذلك حتى يستولي على دار المسلمين في قرطبة. ثم عمد إلى استدلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والحزبة عليهم، ولكن الاتفاق والتعاون بين المتوكل صاحب بطليوس والمعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين حقق لهم النصر على الفونسو في وقعة (الزلاقة) ولكن إلى حين.

بعد تلك المعركة عادت الخلافات بين ملوك الطوائف ولكن يوسف بن تاشفين عزم على القضاء على دويلات الطوائف وتوحيد كلمة الأندلس، فقضى على المعتمد بن عباد، وأما المتوكل عمر فقد اتهم بالاتصال مع العدو وقام أمير الجيوش المغربية بإعدامه. واستطاعت دولة المرابطين أن تمتد سلطانها على أرجاء واسعة في المغرب والأندلس وبموت علي بن يوسف بن تاشفين بعد موت والده قبله بمدة قصيرة كانت بداية النهاية لدولة المرابطين، لتقوم مقامها دولة الموحدين هناك.

ولقد شهد عهد الموحدين قيام دولة البرتغال المستقلة، ثم قيام تلك الدولة المستقلة بقتال العرب بكل شراسة وضراوة ويسط نفوذها الكامل على منطقة (الغرب) أي غرب الأندلس وجنوب البرتغال وإنهاء كل أثر عربي أو إسلامي هناك. وقد تم لهم ذلك بعد تعاونهم مع الحملات العسكرية الصليبية التي كانت تأتي من أوروبا بحراً فتمر بسواحل البرتغال وتنزل هناك لتقاتل العرب قبل ذهابها إلى السواحل العربية في بلاد الشام.

أدت الانتصارات العسكرية الأسبانية والبرتغالية إلى نهاية دولة الموحدين في الأندلس والبرتغال، وكذلك نهايتها في المغرب العربي، ولقد توالى الحملات الصليبية بعدها على المشرق العربي بإثارة من البابا آنذاك فكان أن سقطت القدس في أيدي الصليبيين عام 1099م. وقد تم تنسيق بين الجيشين الصليبي والبرتغالي فشنا هجوماً مشتركاً كاسحاً على (لشبونة) وانتزعوها من العرب في 25 حزيران (يونيو) 1148م. وقد ساعد هذا الانتصار على تثبيت استقلال البرتغال ليس عن العرب فقط بل وعن الأسبان أيضاً. فاتخذوا من (لشبونة) عاصمة للمملكة البرتغالية وفتحوا موانئها أمام السفن الصليبية القادمة

من أوروبا.

من نهاية القرن الخامس عشر إلى مطلع القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد نجحوا في استكشافاتهم ومشاريعهم البحرية والتجارية، ولم يعد توسعهم في المغرب يمكن أن ينفصل عن الأهداف السياسية والاقتصادية لهذا المشروع. والتوسع البرتغالي على الساحل الغربي للمغرب وإفريقيا كان مصحوباً بتنافس إسباني. وفي 7 يونيو 1494 عقدت الدولتان إسبانيا والبرتغال اتفاقيتهما الشهيرة (توردسيلاس) لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما. على أن يكون ذلك التقسيم بجعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال والمستعمرات الغربية من نصيب إسبانيا. وقبل أن يموت الملك البرتغالي يوحنا الثاني فإن التنافس بين إسبانيا والبرتغال كان على أوجه، وظل التنافس قائماً إلى أن وصلت إسبانيا جزر البحر الكاريبي على يد البحار الجنوبي (كريستوفر كولومبس) في أكتوبر عام 1492 وهو العام نفسه الذي سقطت فيه (غرناطة) المملكة العربية الأخيرة في الأندلس بأيدي الأسبان. فكان ذلك نهاية لكل أثر عربي في إسبانيا وشبه جزيرة أيبيريا.

ومما يمكن تأريخه في إطار الصراع العربي البرتغالي وورد ذكره في الوثائق التاريخية أن اتساع نشاط البرتغاليين بالهند أدى إلى حجب وصول التوابل والسلع الشرقية بكميات كبيرة إلى مصر والشام مما جعل مصر تواجه ظروفاً صعبة هي وشقيقتها في الشراكة في تجارة التوابل الهندية. ولقد شهد عام 906هـ - 1500م، تولي السلطان قانصوه الغوري السلطة في مصر وهو السلطان السادس والأربعون من ملوك الترك بالديار المصرية وهو أيضاً الملك العشرون من ملوك الشراكسة وكانت فترة حكمه من 1501 حتى 1517م. إلا أن السلطان الغوري كان منشغلاً في حروب انفصالية داخلية واحدة في «الكرك» في الأردن والثانية في «ينبع» في الحجاز، ومع اشتداد وطأة الحصار البرتغالي والتهديد بإغلاق مضيق باب المندب بوجه السفن المصرية واقترب انهيار التجارة المصرية، وفقدان سمعة مصر كدولة تجارية من الطراز الأول إضافة إلى توالي الرسائل من الهند في طلب النجدة، فقد حدا ذلك بالسلطان

الغوري أن يأمر (باشا العسكر) أي قائد الجيش وهو الأمير حسين الكردي أن يجهز حملة للذهاب إلى الهند وقاتل البرتغاليين وتدميرهم هناك. وفي حوالي الربع الأخير من عام 1505م تشكلت الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي. ولقد وصلت القوات العسكرية المصرية إلى السواحل الهندية عام 914هـ وهو ما يوافق عام 1507م وقد حصل الصدام مع القوات البحرية البرتغالية، وبالتعاون مع القوات الهندية المسلمة تم للأمير حسين الانتصار الساحق على القوات البرتغالية.

ولم يستسلم البرتغاليون للهزيمة التي حاقت بهم فصمم الملك البرتغالي على رد الاعتبار والثار لمقتل ولده لورنزو. فأناط أمر حملة كبرى إلى (تريستو دي كونها) وكانت أوامر الملك لـ (دي كونها) أن يحتل أولاً جزيرة سقطرة ويبني فيها قلعة عسكرية وأن يقوم بحماية المسيحيين الموجودين هناك. كما يجب عليه إقامة مستودع وقاعدة بحرية ليتمكن الأسطول البرتغالي من استخدامها والخروج منها لمقاتلة السفن المصرية وكذلك لإغلاق باب المندب.

ودارت الدوائر على مواطن العرب والمسلمين في الهند وسواها من البلدان وبقيادة دي كونها، ونائبه السفاح (البوكيرك) وتهات (المدن الساحلية الإسلامية على شواطئ الهند وبحر العرب). وخلال كل تلك المواقع فلقد أظهر البرتغاليون أقصى ألوان الوحشية، فدمروا وأبادوا ونكلوا وفتكوا بالأبرياء والأطفال والشيوخ والنساء. ومن مجريات الأمور والحرب بين المسلمين والبرتغاليين توهجت كتب التاريخ بأسطر قانية تنطق ببشاعة وقسوة القائد البرتغالي البوكيرك الذي ما أن يدخل مدينة مسلمة حتى يبادر بالأمر بقطع رقاب جميع من فيها كباراً وصغاراً لمنع زيادة نسل المسلمين كما جرى بعد معركة (كوا) سنة 1510م. ولقد شكل سقوط هذه المدينة انهياراً عاماً في معنويات حكام الهند على الساحل الغربي فاستسلم معظم الحكام والملوك المسلمين هناك.

وتفقت ذهن البوكيرك عن خطة ينفذ فيها غرضه في السيطرة على العالم

الإسلامي وذلك بعد السيطرة على عدن، بأن يدخل بسفنه إلى البحر الأحمر وينزل في ميناء (ينبع) ثم يشن غارة بفرسانه المدرعين على المدينة المنورة ويدخل إلى الحرم الشريف ويقوم بنش رفات النبي (ص) ونهب ترابه والعودة به إلى السفن، فإذا تم له ذلك قاوضه بكنيسة القيامة في القدس، ثم يدعو مليون متطوع أوروبي ليأتوا إلى الحبشة.

حاول (البوكيرك) أولاً احتلال مدينة عدن. ففي فجر يوم السبت في 26 آذار (مارس) عام 1513م باشرت قواته بالنزول إلى الشاطئ على أن يكون الهجوم على ثلاثة محاور. وفي قلعة السعادة اجتمع أمير عدن (مرجان الظافري) برجاله وأبلغهم بخطورة الموقف واحتمال انسحابه إلى خارج المدينة والاعتصام بالجبال. إلا أن اثنين من رجاله هما «ابن مافرس» و«ابن المهيري» اعترضوا على ذلك. وأصرّا على أن يقوم الأمير بهجوم معاكس يطرد به القوات البرتغالية خارج أسوار المدينة. وجرت الأمور سريعاً فدارت الدوائر على القوات البرتغالية الغازية وقتل عدد كبير منهم.

وبعد تحطم خطط البوكيرك على صخرة صمود المسلمين في عدن اضطر لأن يتراجع عنها ويأمر أسطوله بالتحرك نحو الهند فغادر الأسطول يوم 4 آب 1513م المياه العذنية متوجهاً نحو الهند. وقد كان القائد البرتغالي يعتبر عدن واحداً من ثلاثة أهداف كبرى يجب احتلالها وهي (ملقة) و(هرمز) و(عدن) إلا أنه فشل في تحقيق هذا الهدف الأخير المستعصي على أطماعه. ثم ما لبث أن مات بتاريخ 15 كانون الأول من عام 1515م.

ويفرد الدكتور فالح حنظل في إطار بحثه التوثيقي التاريخي فصلاً للرسائل التي تبادلها الحكام الذين وقعوا في قبضة البرتغاليين مع ملوك البرتغال والحكام العسكريين في المناطق التي احتلوها، وهذه الرسائل تعتبر وثائق مهمة في تثبيت وقائع الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي. وهي رسائل مأخوذة من الأرشيفات البرتغالية والأوروبية وكذلك بالاستناد إلى مقال نشره الدكتور أحمد بومشرب الأستاذ المساعد بكلية الآداب في فاس بعنوان (مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل

المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي).

وبالانتقال إلى مرحلة حديثة أو إلى ما يبشر آنذاك ببزوغ فجر جديد للتحرر الإسلامي من طغيان البرتغاليين فقد أطلت بشائر ذلك العهد مع السلطان سليمان القانوني السلطان العثماني الذي كان شديد الحرص على سيادة العثمانيين على أوروبا وكانت روحه العالية تجعله في حالة إقدام مستمر. سار إلى المجر وفتح بلغراد عام 1521م. وحارب ضد الفرس واحتل بغداد عام 1534م. وقد أدى ذلك إلى ازدياد اهتمام السلطان بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين، لأن فتح بغداد يعني أنه سيتمد بنفوذه إلى البصرة وسواحل الخليج العربي الشمالية فيصبح بذلك وجهاً لوجه أمام البرتغاليين هناك. وصار احتلال عدن هدفاً أساسياً يهدف لسيطرة السياسة العثمانية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية. ومن أجل القضاء على نفوذ البرتغاليين وانقاذ تجارة الشرق الغنية فقد أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى والي مصر سليمان باشا الخادم لإعداد حملة عسكرية تذهب إلى عدن لاحتلالها والسيطرة على اليمن سيطرة تامة، ثم الخروج بعدها إلى الهند لقتال البرتغاليين.

وفي محرم من سنة 945هـ/ يونيو 1538م تم تشكيل الحملة العثمانية - المصرية وأصبحت جاهزة للحركة، وكان قوامها سبعين سفينة كبيرة وثلاثين سفينة أصغر حجماً. وكان عدد مقاتليها نحواً من عشرين ألف جندي من عرب مصر والشام، وكان قائد الحملة هو والي مصر نفسه المعروف باسم سليمان باشا الخادم. وكان سليمان باشا يميل إلى معالجة الأمور بالشدة. فأرسل موفداً منه إلى حكام اليمن ليخبرهم بأمر الحملة التي ستأتي إليهم ويطلب منهم الدخول في طاعة السلطنة العثمانية، وعندما وصل إلى عدن استقبله السلطان عامر بن داود الطاهري، إلا أن نتائج الاجتماع لم تكن مشجعة، فغادر الموفد عدن وهو غير راض عن السلطان. وتوالت الأمور بعد ذلك كما لم يشته السلطان عامر سلطان عدن الذي كان يمني النفس باستمالة سليمان باشا الخادم. فكان أن احتل هذا عدن وأعدم السلطان مع مرافقيه الستة وقام الخادم بإعلان سقوط الدولة الطاهرية في اليمن وقيام عهد الحكم



العثماني هناك.

وتوجه سليمان باشا إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين فوصل إلى ميناء (ديو) وقام الخوجا صفر ومحمود شاه بإرسال الهدايا إليه وأخبراه بأنهما مستعدان لمعاونته في الهجوم على الحصن البرتغالي. وبالرغم من الخسائر الكبيرة التي أنزلها بالقلعة المحاصرة إلا أنه أخيراً ارتد عنها وذلك بعد أن تخلّى عن نصرته الخوجا صفر والأمراء الهنود الذين قدروا بأن انتصار العثمانيين ودخولهم إلى الهند بقيادة سليمان باشا سيكون كارثة عليهم أشد وأقسى من كارثة البرتغاليين.

هذا في الهند، أما مجريات الأمور في المغرب المغربي فقد كان لها شأن آخر. وقد اندرجت تحت عناوين كبيرة هي تولي السلطان أحمد ابن الوطاسي الحكم في مملكة فاس عام 1526م، وظهور المنافسة بينه وبين السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس. ثم توقيع معاهدة صلح بين البرتغاليين والوطاسيين لمدة أحد عشر عاماً، ومعاهدة صلح بين البرتغاليين والسعديين لمدة ثلاث سنوات، وإعلان السلطان أحمد السعدي الحرب بعد ذلك على البرتغاليين بعد انتهاء المهادنة. وانتزاع السلطة من الأمير أحمد من قبل أخيه محمد عام 1544م.

بعد أن استقر الأمر في المغرب العربي للدولة السعدية بقيادة السلطان محمد الشيخ السعدي عام 1549م تمكن ذلك السلطان من السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقي المجاور للجزائر والتي كان الأتراك العثمانيون قد ساعدوا السعديين هناك؛ مما أدخل الرعب في قلوب الأسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الإسلاميتين ضد مراكز الاحتلال في كل من الجزائر والمغرب. ولكن المغرب العربي أبدى مقاومة ضد الوجود التركي ودارت معارك ضارية بين الطرفين انتهت بهزيمة الجيش المغربي عام 1551م. ولم يهتم الأتراك بقتال الوحدات البرتغالية والإسبانية المعشعشة في المغرب بل فعلوا مثلما فعلوا في اليمن فلم يفوا بالعهد مع أبي حسون الوطاسي واغتنموا الفرصة للإطاحة به، فهاجموا مدينة فاس بغية قتل (أبا

حسون) ولكنه استطاع أن يصمد أمام الهجوم، بل إنه أنزل بهم الهزيمة وراح يطارد فلولهم حيث عادوا إلى قواعدهم في الجزائر. وهكذا انتهت فتنة التدخل العثماني في المغرب.

لكن يبرز هنا اسم الغالب بالله الذي اتهم التواطؤ مع القوات البرتغالية اتقاءً لشر الأتراك. ويوجه المؤرخون إليه اتهاماً آخر وهو تقاعسه عن نجدة الأندلسيين في ثورتهم بغرناطة عام 1568م، إذ ثار المسلمون هناك عندما أصدر الملك فيليب ملك إسبانيا قوانين جائرة بحقهم، فهدم حماماتهم وجوامعهم وأتلف ثيابهم وأمر برفع الحجاب عن وجوه النساء وعدم التحدث بالعربية وترك أبواب منازلهم مشرعة نهائياً لمدة ثلاثة أيام. فقام المسلمون بثورة بقيادة (دون فرناندو دوفالور) الذي استرجع اسمه العربي الأصلي محمد بن أمية، وأطلق على ثورته اسم (البشارات) وسجل نجاحات باهرة إلا أن فيليب الثاني تمكن منهم وسحق ثورتهم.

وبالعودة إلى المشرق العربي فإنّ أوضاع الأتراك لم تكن مستقرة في العراق وحضرموت واللذين يمكن أن يتخذاهما كأحسن فكي كماشة لتطويق البرتغاليين والقضاء على نشاطهم في الخليج العربي وبحر العرب.

وفي عام 1550م تم تعيين نائب جديد لملك البرتغال هو (دون ألفونسو دي نوروبها) فوجّه حملتين إحداهما إلى البحر الأحمر وكان مآلها الهزيمة والفشل، والأخرى إلى الخليج العربي حيث كانت المواقع سجلاً بين الأتراك والبرتغاليين.

وفي عام 1578م أوائل شهر حزيران كانت التدابير التحضيرية للحملة التي يزعم الملك البرتغالي سيباستيان قيادتها قد بدأت. وفي 25 حزيران تحرك الأسطول المقاتل نحو المغرب، وفي يوم 9 تموز 1578م وصل الملك سيباستيان وحملته الرهيبة إلى مرفأ مدينة (طنجة) المغربية التي كانت تحتلها البرتغال. وفي المقابل كانت تُعدّ حشود الجيش المغربي بقيادة الملك عبد المالك بينما كان السلطان السابق محمد المتوكل يتعاون مع البرتغاليين. وكان

إن التقى الجيشان فتوفي الملك عبد المالك، بينما قتل الملك سياستيان أثناء المعركة وتولى الحكم بعد ذلك أحمد المنصور الذي قدر له أن يكون أعظم ملوك المغرب. كما أثبت بأنه سياسي من الطراز الأول إذ استطاع بعد أن أنهى أسطورة الجيش البرتغالي الذي لا يقهر أن يلعب بموازن القوى الدولية بشكل دبلوماسي محترف.

كانت نهاية البرتغال أن وقعت تحت حكم اسبانيا وقد توج الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا ليصبح ملكاً لإسبانيا والبرتغال يوم 16 نيسان 1581م. وما أن تسلم الحكم حتى أقسم أن يحافظ على المستعمرات البرتغالية في العالم وأن يحافظ على تجارة الهند والقواعد البرتغالية الموجودة فيها وفي هرمز والسواحل العربية في الخليج العربي.

ولكن البرتغاليين ما لبثوا أن اندحروا أمام التحالف الفارسي والإنجليزي فسقطت هرمز وهربت القوات البرتغالية ولم يستسلم القائد البرتغالي (فيريرا) فجدد حملاته على القلعة الفارسية في مدينة (صحار) ثم مدينة (يا) فمدينة (ليما) فبلدة (خصيب) وتمكن ذلك القائد من احتلال الساحل العماني المواجه لبحر عمان وراح البرتغاليون يوطدون أقدامهم في مسقط وجزيرة لارك والبصرة.

وفي عام 1624م انتخب ناصر بن مرشد اليعربي إماماً على عمان وشهد ذلك التاريخ بداية قيام الدولة اليعربية هناك. ولما خلصت له البيعة اتخذ راية جديدة وشكل وحدات عسكرية قبلية عين عليها قادة ممن بايعوه من القضاة والولاة والزعماء وأركان الأمة. ولقد كانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات بناء الجبهة الداخلية. وكان عليه أن يخمد ثورات المتمردين عليه أمثال ماتع بن سنان حاكم مدينة سمائل الذي اتصل بزعيم آخر هو سيف بن محمد الهنائي حاكم مدينة (بهلا) وقد تصدى لهما الإمام ناصر وهزمهما فهربا إلى حمى البرتغاليين في مسقط وصُحار. ولكنه لم يمهلهما وسير جيشاً هاجم به معاقل البرتغاليين، مما اضطر هؤلاء إلى طلب الصلح من الإمام فوافق على ذلك، وأن يقوموا بدفع الجزية.

وكانت الخطوة الثانية للإمام ناصر بن مرشد اليعربي هي أن يقوم بتحرير عُمان من الوجود البرتغالي والفارسي الموجود على أراضيها. ولقد خاض عدة معارك بأسلة ضد البرتغاليين ابتداءً من معركة تحرير جلفار إلى بقية المعارك في بقية المدن خاصة دبا وخورفكان وضُحار والتي تم تحرير معظمها، ولم يبق في أيدي البرتغاليين عام 1649م من الأراضي العمانية إلا مدينة مسقط والقاعدة البحرية في مدينة خصب.

وفي ذلك العام انتقل إلى رحمة الله الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس الدولة اليعربية في عُمان والبطل الذي صارع البرتغاليين وكسر حاجز الرهبة والخوف منهم. إلا أنه مات يوم 24 نيسان 1649م، فعقد أهل عُمان البيعة إلى ابن عمه وقائد جيوشه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي.

وكان أول ما فعله الإمام الجديد حينما استلم مقاليد الأمور أنه باشر بوضع الخطط الحربية اللازمة لمهاجمة مسقط وانتزاعها من أيدي البرتغاليين وتحريرها. وباشر حصاره للمدينة مما دفع بالبرتغاليين إلى الاحتماء في قلعتها وسدت أبوابها. فسارع العمانيون بالدخول إلى مدينة مسقط ومحاصرة القاعدتين البرتغاليتين، وقد انتهى الحصار بنصر حاسم للإمام سلطان، وكانت نتيجة المعركة أن القوات العمانية أبادت المعسكر البرتغالي في مسقط عن بكرة أبيه، فدخل الإمام القلعتين فاتحاً وطهرهما وأسماهما (الميراني) و(الجلالي) ثم لم يلبث أن أتنه وفود من القلعة البرتغالية في مطرح وهم يرفعون الراية البيضاء علامة التسليم. وهكذا تم تحرير التراب العُماني من البرتغاليين منذ أن دخلوا البلاد عام 1507م إلى عام 1650م.

ويعترف البرتغاليون بأن سقوط مسقط أدى إلى انهيار تام للوجود البرتغالي في الخليج العربي. وعموماً يمكن القول بأنه وعملياً فإن قصة الاستعمار البرتغالي لآخر قطر عربي قد انتهت في عام 1650م، بل إن قصة النهاية للبرتغال كدولة عالمية قد انتهت أيضاً في ذلك العام.